الشرق الأوسط
١٢-١٠-١٩٨٥

في يديَّ السُّنبلةُ، في يديكَ الندمُ!

يبدو اننا نتفق على ان المسالة الثقافية مسالة حاسمة في النهوض والنمو والوثب وكسب الصراع. لان المثقفين هم «النخبة» المستنيرة التي تمهد للقرار الفاعل، وتهيء لخصوبة الفعل، ولان الثقافة هي «المضمون» العميق للتاريخ، تحركه، وتوجهه، وتتحكم في طبيعة سرعته. ويعتقد المفكرون النابهون ان من اسرار سيادة الحضارة العربية سياسيا وعسكريا واقتصاديا - في عصور سابقة - ان المسالة الثقافية - في عناصرها الاولى - كانت محسومة، رغم قيام العديد من الفرق والمذاهب التي تلاحت وتطاحنت في حقب متعددة من تاريخنا الطويل. والحسم جاء من حيث ان تلك العناصر الاولى كانت - في ميلاد المثقف - اصيلة وصميمية إذ انها تنبع من تحت جلده، وتستمد دماءها من تراثه الخاص، وتلك العناصر هي التي وثقت له عروة الانتماء، وهي التي هياته للقدرة اللازمة على توظيف مكتسباته الثقافية - الاصيلة والدخيلة - لتحريك عجلة التاريخ ضمن هواه القومي او الايديلوجي.

وفي استقراء منصف لسيرورة الثقافة العربية المعاصرة، نجد العديد من الاجابات الحرجة حول ما يتعلق بالواقع العربي المهلهل لاسيما في هذه المرحلة العصيبة التي تتطلب - ضمن تناقضاتها المتعددة - شيئا من النضال الصلب على المستوى القومي، وشيئا ايضا من الامتداد التنموي الداخلي لانتشال العديد من الفئات المجتمعية من الجهل والجوع والتخلف.

إن ما نريد ان نركز عليه هنا هو «البداوة الفكرية» بمقتضى تسمية د. سعد الدين ابراهيم في كتابه/البحث: «تجسيد الفجوة بين صانعي القرارات والمفكرين العرب». ومراجعة هذه التسمية، واستقطاب ابعادها، والتفكير في مدى مصداقيتها كان شرارة صغيرة انطلقت في الذهن ثم تحولت فيما بعد الى تداعيات مخيفة اكثر منها مؤلمة. وفي جذر تلك الشرارة يستتر واقع مكلف من الاحقاد، والتناحر، والتلاحي، بين المثقفين العرب المعاصرين. وفي اصل ذلك الواقع - احيانا - لا توجد فكرة، او ايدلوجية، او موقف قومي او انساني، وهذا ما ينزل بالخلاف - او الاختلاف - الى «دونية» ليست على شيء من الشرف او القيم الاخلاقية. إننا نتالم كثيرا - نحن الصغار - عندما نرى كبار مثقفينا يتبادلون القذف والشتائم والاتهامات التي تكون في غالبيتها فرعية، تتعلق ببعض الجزئيات غير الخطيرة، وتكون احيانا ملفقة، والهدف دائما هو صيانة بعض الامجاد الشخصية. وللقارىء المسكين ان يستقرىء ذلك بنفسه مما تنشره الصحف، وتبثه الاذاعات واجهزة التلفزة، من احاديث ولقاءات تعود فيها الصحفيون الخبثاء على طرح بعض الاسماء للوشاية والفتنة والتفكه بما يقال حولها من آراء واحكام، وبما يقذفه الكبار في وجوه الكبار. وبدل ان نكون امام «حوار» فكري له موضوعيته، ومشروعيته، وهدوؤه، نجد اننا - بالاحرى - امام مشهد من حلقات المصارعة الحرة او الملاكمة التي تستفز المشاعر وتثير في دواخلنا العديد من الاسئلة المدببة حول مصيرنا الثقافي مادام هؤلاء يتربعون على عرشه.

ود. أسامة عبد الرحمن في كتابه الجديد «الثقافة بين الدوار والحصار» يفسر هذه الواقعة الثقافية المؤذية بمؤشر على حرارة الانفعال، ومؤشر على ضآلة الموضوعية، ومؤشر - فوق ذلك - على ضآلة الوعي الفكري.

تلك كانت الشرارة، لكن كتاب د. سعد الدين ابراهيم المذكور قبلا هو الذي القى امامي بهذا المصطلح الشيق: «البداوة

ثقافة
عام

الفكرية»، وهوالذي ـ ايضا ـ زج في مخيلتي بالعديد من التداعيات حول المثقفين العرب، وحول مسالة الحسم بالنسبة للثقافة في كثير من الامور المتعلقة بالنمو، والوثب، وكسب الصراع. إن د. إبراهيم يتحدث عن وشائج المثقفين العرب هكذا: «... انتهى الأمر بالعديد منهم الى التخاطب مع بعضهم البعض داخل اطار يحكمه نوع من (البداوة الفكرية). فعن وعي أو غير وعي، نظر كل مفكر الى غيره من المفكرين كما لو كانوا مقسمين الى قبائل، وكل قبيلة مقسمة الى عشائر، وكل عشيرة الى بطون، وكل بطن الى افخاذ. وكان المفكر يشعر بالدفء والالفة حينما يتخاطب مع مفكرين من فخذه، وتتدرج الالفة متناقصة الى مستوى القبيلة. ثم تتحول الى تجاهل، او توتر او عداء عند حدود القبيلة في مواجهة قبائل اخرى.

واختيار د. سعد الدين لمفهوم «القبيلة» بظلاله المجتمعية، ودلالاته التاريخية، وابعاده العاطفية، وقيمه الضيقة، يوحي بأنه يريد ان يفرغ صراع المثقفين ـ على هذا النحو ـ من أية مضامين حضارية أو فكرية حقيقية وذات تأثير في مستوى النمو وحسم التطلعات العريضة والناهضة للأمة. كما انه يريد ان ينفي عن ذلك الصراع صفة «الحوار» المسؤول والمرغوب للتلاقح واثراء المخيلة الجماهيرية، وتوسيع مدارات الطموح وافاق التفوق.

وهو حين لا ينفي بعض الجذور المذهبية او الطائفية أو الايدلوجية في قاعدة ذلك الصراع لا يؤكد ـ كما فعلنا ـ حرص بعض المثقفين على صيانة بعض الأمجاد الشخصية، وكأننا قد زدنا نحن في تضييق منطلقات الاختلاف، بل اسهمنا في حصارها اكثر واكثر داخل الوعاء «الأناني» المناقض لأي مشروع موضوعي، مجموعي رحب.

والتداعي الذي ينتصب الآن، ونحن لما نبتعد بعد عن «الذاتية» والمجد الشخصي هو «الثلية» ضمن المفهوم القبلي نفسه، فقد تكونت في كثير من مناطق الاخصاب الثقافي «ثل» لا يحكمها معنى الحوار، أو الحرية، او الديمقراطية رغم أنها تؤكد ـ ظلما ـ في شعاراتها، وفي توجهاتها ان تلك الأمور من مطالبها، بل أهم غاياتها. فيكون الخلاف، ويكن التعتيم، وتكون الحرب بجرحاها، وقتلاها، وضحاياها الابرياء، وغير الابرياء. «ينطفىء الحوار، وتميع المسائل الأساسية.

و «الثلية» ظاهرة مسوغة على الساحات الثقافية، وهي لازمة تاريخية وحضارية لكن شرط أن يكون «الفكر» هو السيد المتحكم في اللغة، وفي العقل. وشرط ان يقوم الحوار وتتحقق الحرية، وتتلاشى صفات القبيلة والدكتاتورية واستغلال المواقع.

إن في الالتهاء بمثل هذه الذرائع انصرافا عن قضايا الأمة الحقيقية، وتعطيلا لدور المثقف الذي يعتبر اساسيا وجذريا في لملمة الاشلاء العربية التي انتثرت مع كل ريح. وبطريقة أبعد من التسطيح الذي يظهر به واقع المثقف العربي في الجانب الذي بسطناه فيما سبق، فان هناك من يرى أن هذا الضياع له ابعاد اخرى، وهو ملتصق ـ زمنا وتكوينا ـ بأحداث كان لها تأثيراتها القاهرة في الواقع العربي من ناحية سياسية واقتصادية، ولكن ـ أهم من ذلك ـ اجتماعية وثقافية. فالاختراق الغربي للمجتمع العربي جاء بمعادلة جديدة، وهي الازدواجية في المعرفة والثقافة والفكر، فبينما كان المفكر العربي التقليدي ـ كما يؤكد د. سعد الدين ـ «نتاجا لبيئة مهما تنوعت بشريا فهي متسقة حضاريا» لأن المعرفة كانت مؤسسة على الدين، ومتمحورة حول الدين واللغة،

وكانت هذه هي الارضية التي يبدأ منها كل مفكر. لكن الازدواجية التي جاءت ـ بفعل الاجتياح الغربي (منذ القرن التاسع عشر) جعلت الثقافة تعيش واقعا جديدا ينشطر بين خطين: مؤسسات الفكر التقليدي المعروفة، ومؤسسات الفكر الحديث «التي بدأت في الترويج لعلم ومعرفة وثقافة جديدة، ومناهج جديدة، وتخريج كوادر من المفكرين الجدد، وبدأ الحديث ينظر شزرا الى التقليدي، ويكن له الاحتقار سافرا او مستترا، ويجد حظوة من الحاكم الاجنبي ثم من الحاكم الوطني، ويبادله التقليدي مشاعر الشك والريبة والحسد، وكانت تلك بداية انقسام الجماعة الثقافية ـ الفكرية في الوطن العربي الى جماعتين عريضتين، وان كانتا غير متكافئتين عددا او نفوذا».

ثم يضيف: «ثم انقسمت كل من الجماعتين الى جماعات متعددة: الجماعة الفكرية التقليدية انقسمت الى اغلبية من المتزمتين النصوصيين والى اقلية من المصلحين الدينيين».

ثم انقسمت الجماعة ـ الثقافية الحديثة بدورها الى فرق متعددة فكان منهم الليبرالي ـ شبه العلماني، والوضعي العلمي، وكان منهم دعاة الى ايدلوجيات سياسية عصرية، وهذا الفريق انقسم بدوره الى فرق فرعية منها ما هو قومي عربي، وما هو اشتراكي او ماركسي.

ثم يقول د. ابراهيم: «كان من الممكن لهذا الانقسام ان يخلق تنوعا خلاقا في الجماعة الثقافية الحديثة لو كان بينها حوار عقلاني، ولكن الذي ساد في علاقات هذه الفرق، بعضها ببعض، هو اما التجاهل المتبادل، كل يسبح في فلكه، او معارك طاحنة بقصد الابادة الفكرية».

ومن المثير ان المفكر المغربي د. عبد الله العروي يشير في كتابه: «ازمة المثقفين العرب تقليدية ام تاريخانية» الى مثل هذه الانقسامات داخل البنية الهيكلية للمثقفين العرب، ثم يؤكد ان الذين مازالوا مع ثقافتهم التقليدية هم الاشد فعالية فهي تخرج من تحت الجلد وتنبثق من الدم. يقول د. العروي: «التربية الجديدة (الثقافة الاوروبية) استمرت في الانتشار، وقد أتاحت المجال لنشوء نمط خاص بالنخبة الجديدة، ويبدو انه يكاد يميز نوعين: النوع الذي ينال مباشرة الثقافة الاوروبية، وذلك الذي يلجأ، إذ لا يمتلك ناصية لغة اوروبية، الى الاقتباسات، وفي هذه المرحلة التي تعنينا ان ذلك الذي مازال مع ثقافته التقليدية هو الاشد فعالية، ان لم يكن اكثر مطابقة وعليه راي الذي يدعي عصرا تحرريا تخوفا في التعاون ثم قطيعة متعاظمة بين هذين النوعين من المثقفين المحدثين».

والخريطة الثقافية العربية على هذا النحو تبدو في غاية الاضطراب، والتناقض، والتوتر، وهذا هو التداعي الاهم في منظومة التداعيات التي تخترق الذهن، فالأمر يعني ان هناك تقليديين ومحدثين، وان هناك متزمتين نصوصيين، وان هناك دعاة مصلحين، وان هناك داخل هذين الاطارين الكبيرين عددا من القبائل والفخوذ والبطون المتناحرة التي إنعدم بينها الحوار، واثرت الاقتتال والفرقة والعداء والبين. فالتناقض بين هذه الفرق اضحى صميميا، واهم من ذلك غير عقلاني، وغير إيجابي.

إننا ونحن قد ابتعدنا كثيرا الآن عن الذاتية والامجاد الشخصية، او [illegible]

الضيق، نتحسس - بعيدا بعيدا - الاختلافات الاعمق والاخطر، الاختلافات القاتلة، ود. العروي - بدوره - يعمق المشكلة من حيث العصبية بين القبيلتين التقليدية والحديثة على هذا النحو المحزن: «فالذين تمسكوا بالماضي (التراث) لم يفهموه على حقيقته، والذين حاربوا الماضي لم يفهموا الماضي» وعموما «فقد انشغل المفكرون العرب من بداية القرن التاسع عشر بـ (الآخر) اي الغرب، بعضهم انشغل برفضه كليا او جزئيا، وبعضهم انشغل بمحاولات الانتقائية في تقليد هذا الجانب او ذاك» وهذا يعني انهم قد انشغلوا - تماما - عن الاشتغال بانفسهم، بماضيهم، وواقعهم، ومستقبلهم.

والاعتراض ليس في الاطلاع على الحضارات الأخرى، ومحاكاتها - ابتداء - والاقتباس منها، وصهرها وتوظيفها، ولكن الاعتراض هو على الاغراق في الاهتمام بـ «الآخر» والذوبان فيه، والاعتراض كذلك ليس على الاهتمام بالتراث، والانكباب عليه، واستيحائه، واستلهام خلاصاته التطابقية، ولكن الاعتراض هو على التعصب والتزمت والعناد والمكابرة. وكلا الطريقين يؤديان الى نتيجة واحدة وهي «التبعية» التي هي - فعليا - واقع العرب اليوم. والعروي نفسه يرى في كتاب له آخر هو: «الإيدلوجية العربية المعاصرة»: ان المثقف لا يستطيع ان يمحو التاريخ من فكره، ذلك ان الفكر اللاتاريخي لا يؤول إلا الى نتيجة واحدة وهي عدم رؤية الواقع، واذا ترجمت هذه الى عبارات سياسية فيكون فحواها ان ذلك يؤدي الى التبعية في جميع المستويات، ومثل هذا ينطبق على الفكر الانتقائي الذي ينفتح بأكمله على المؤثرات الخارجية، والفكر التقليدي ليس باقل مسؤولية في هذا الصدد، فـ «كيف يستطيع ان يقاوم التكنولوجيا الحديثة بانظمتها الاقتصادية والاجتماعية ومدارسها الفكرية المعاصرة في حين انه لا يفهمها وليست لديه إمكانية لاختراع انظمة منافسة».

إننا لا نوافق على الحلول البديلة التي قدمها العروي في افضل مدرسة للفكر التاريخي يجدها العرب. ولكن بسط المسألة بهذه التصورات الحادة لواقع العرب لا بد ان يثير في نفوس المثقفين الكثير من الاسئلة حول واقعهم، وبالتالي فهم مدعوون الى مراجعة علاقاتهم بانفسهم، وبمواقفهم، وبسلوكياتهم الذهنية. كما انهم مطالبون باعادة قراءة تاريخهم، واختيار صياغة جديدة له في ضوء الاكتشافات الصميمية التي ستلقاهم. وسيرون انهم في هذه الفوضى الشاملة، واختلاط الأدوار، وتداخل المصالح، وتضارب الصلاحيات، وتناقض الاتجاهات، وتشوش النظرة واضطرابها، هم المسؤولون كذلك عما يسميه د. سعد الدين ايضا: «البداوة السياسية» فبما ان الحركات السياسية - قبل الاستقلال وبعده - قد انطلقت من ارضية مشبعة بـ «البداوة الفكرية» فانها - بالضرورة - قد افرزت «بداوة سياسية» عمياء «كانت في بعض الأحيان اكثر فتكا وتدميرا ببعضها البعض مما كانت عندما اقتصرت على البداوة الفكرية. لذلك نجد ان بعض الناس الذين استمعوا الى بعض هذه التيارات (الفكرية - السياسية) بعض الوقت، قد انفضوا عنها، وضاقوا بها قرفا او ياسا».

ونريد ان نضيف ان البداوة السياسية لم تقف عند تلك الحركات التي وصلت الى الحكم او اقتربت منه، لكنها شملت - مع الأسف الشديد -

فيها العسكرية والتي جاءت - في الغالب - الى الحكم دون ايدلوجية محدودة، ولكنها كانت تريد فقط «الفردوس الموعود» وهو الحكم. ولننظر للحالة المزرية التي تتردى فيها علاقات الأنظمة العربية بعضها ببعض رغم كل ما بذل ويبذل من محاولات مستميتة للملمة الشمل وجمع «الزعماء» حول طاولة واحدة - على الاقل - للحوار، فقط للحوار!!

إن هذه الجدلية المشوهة تنسحب ايضا - ولزاما - على المجتمعات العربية نفسها، فالأزمة السياسية والأزمة الفكرية تدفعان - استتلاء - الى تشويه الواقعة المجتمعية، واحباط التطلعات القومية والوطنية وهذا كله يعود بنا الى التذكير بمسؤولية المثقفين البالغة في التاثير المباشر في عجلة النمو والوثب وكسب الصراع، وهؤلاء يدركون ان مجتمعاتهم - داخليا - عاجزة عن النهوض، و - قوميا - عاجزة ايضا عن كسب الصراع حتى على المستوى الاعلامي. وتحقيق الطموحات الوطنية والقومية لا يمكن ان يولد في بيئة مهلهلة تفتقد الى الانساق السياسية والفكرية والاجتماعية التي تحفظ توازنها، وتدفعها الى التفكير بعقلانية والى التصرف بمسؤولية تامة، وهذه لن تحدث ما لم يعد النظر في السياقات الخلاقة لتحقيق مثل هذه المعجزة، ابتداء من طريقة تنشئة المثقف العربي، وانتهاء باقتحامه الدور الحقيقي الذي يجب ان يلعبه في التاسيس لثقافة رائدة واصيلة، وفي الانشغال الموضوعي بواقعه وواقع مجتمعه في الماضي والحاضر والمستقبل.

هل ترون كيف اتسعت دوائر المازق؟ وكيف تضخمت التداعيات حول الواقع العربي السياسي والفكري والمجتمعي، لقد ابتدانا بالقذف المتبادل بين المثقفين، والتهائهم بمسائل صبيانية من هذا النوع ثم سرنا، وسرنا، حتى انتهينا الى هذه «المعاينة» المخجلة للشمل العربي في مختلف فئاته وعلى جميع مستوياته.

هل تياسون؟ لا ضرورة لذلك فمازالت امامكم - ان شاء الله - الاف القرون للتوالد، والتكاثر، والتتابع، وربما.. ربما الافاقة.. وربما (واحدة) الموت!